﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ في نظامِ الفَلَكِ بمِنَّتِهِ بالحملِ في الفُلْكِ

لمّا بيَّن الله تعالى سباحةَ الكواكب في الأفلاك وما حدَّه لها أتبعَه بذكر ما هيَّأه من سباحة الفُلْكِ في البحار تذكيرًا بأيّام الله تعالى، وإظهارًا لقُدرته، وتحذيرًا من سطوته ونقمته، وتنبيهًا على توالي نعمه واستدرارها، ومنًّا عليهم بما يسَّرَ لهم من سلوك البحر وجَرْيِ السُّفن فيه، والتَّوصُّلِ به إلى جليل المنافع، فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ الآيةَ[1].

آيةُ البحر تجمَعُ بينَ العبرةِ والمِنَّةِ

ولمّا مَنَّ الله تعالى بإحياءِ الأرضِ وهي مكانُ الحيواناتِ وعدَّ آياتٍ فيها وفي السَّماء بيَّنَ أنَّه لم يقتَصِر على ذلك، بل جعلَ للإنسانِ طريقًا يُتَّخَذُ منَ البحرِ خيرًا، ويتوسَّطُه أو يسيرُ فيه كما يسيرُ في البرِّ كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70][2]، فآيةُ البحرِ تجمعُ بين العبرةِ والمنَّة، وهي آية تسخيرِ الفُلْكِ أن تسير على الماء، وتسخيرِ الماءِ لتطفوَ عليه دونَ أن يُغرِقَها[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَمَلْنَا﴾: (حمل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، يُقالُ: حمَلتُ الشَّيءَ أحمِلُه حملًا[4]، فالحملُ: معنًى واحدٌ اعتُبر في أشياءَ كثيرةٍ، فسوّيَ بين لفظِه في (فَعَلَ)، وفُرِّق بين كثيرٍ منها في مصادرِها، فقيلَ في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيءِ المحمول على الظَّهر: (حِمْلٌ)، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: (حَمْلٌ)،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 282، والبقاعي، نظم الدّرر: 16/ 133.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).

كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة، تشبيهًا بحَمْلِ المرأة[1]، وكذلك قال بعضُ اللُّغويّين: ما كان لازمًا للشَّيءِ فهو (حَمْلٌ)، وما كان بائنًا فهو (حِمْلٌ)، فكلُّ مُتَّصلٍ حَمْلٌ وكلُّ مُنفصلٍ حِمْلٌ[2]، والمُراد بالحملِ في الآية: وضعُ شيءٍ على آخَرَ لنقلِه؛ أي: حمَلْنا ذُرِّيَّة أهلِ مكَّة في أصلاب آبائهم[3].

2) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: (ذرّ) أصلٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ[4]، و(ذَرَرْتُ) بمعنى: أخذك الشَّيءَ بأطرافِ أصابعك، تذُرُّه ذَرَّ الملحِ المسحوقِ على الطَّعام، و(ذُرِّيَّةُ الرَّجلِ): ولدُه، وذهب بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ الذُّرِّيَّة تُطلَقُ على الآباءِ كذلك؛ لأنَّ الذَّرَّ وقعَ منهم، فهو منَ الأضدادِ، والذُّرِّيَّةُ أيضًا: الخَلقُ، مأخوذةٌ (منَ) الذَّرءِ، فتقولُ: ذَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ؛ أي: خَلَقَهُم؛ والجمعُ: (الذَّراري والذُّرِّيّاتُ)، والذُّرِّيَّة: نسلُ الإنسان من ذكورٍ وإناث[5]، ومعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الأولادُ وأولادُهم كانوا في أصلابِ مَن حُمِلَ مع نوحٍ في السَّفينة[6].

3) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدُلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، من ذلك (فَلْكَةُ المِغْزَلِ) بفتحِ الفاء، سُمّيت لاستدارتِها[7]، و(فَلَكُ كُلِّ شيءٍ): مُستَدارُه ومُعظَمُه، والفُلكُ: السَّفينةُ، يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، ويكونُ جمعًا للسُّفنِ، ويُجمَعُ على (الفُلوكِ) أيضًا[8]، والمرادُ به في الآية: اسمٌ لمركبِ البحرِ، واسمٌ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ.

4) ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: (شحن) أصلٌ يدُلُّ على المَلْءِ[9]، و(الشَّحْنُ): مَلْؤُكَ السَّفينةَ وإتمامُك جهازَها كُلَّه، فهي (مشحونةٌ): مملوءةٌ[10]، و(الشّاحنُ): أعظَمُ السُّفُنِ[11]، ومنه (الشَّحْناءُ): عداوةٌ امتلأَتْ منها النَّفسُ[12]، والمُرادُ بالمَشحونِ هنا: المملوءُ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حمل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حمل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 488.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(5) الخليل، العين والأزهري، تهذيب اللغة وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 488.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شحن).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شحن).
(11) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (شحن).
(12) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شحن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من آيـاتِ الله أن هيَّأَ للنّاس ركوبَ السُّفنِ في البحر

يقولُ الحقُّ ﷻ: ودليلٌ آخرُ للمشركين وعلامةٌ لهم على قُدرتنا على كلِّ ما نشاء حَمْلُنا آباءَهم في سفينةِ نوح المملوءةِ الموقِرةِ منَ الأمتعةِ والحيواناتِ، فحملُ الآباء حملٌ للذُّرِّيَّةِ؛ أي: الأولادُ وأولادُ الأولادِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ في الآيةِ:

التَّذكيرُ بعظيمِ قُـدرةِ الـلـه، وتـتـابـعِ آلائِـه، طـريـقٌ إلى الإيمانِ به

جاءت الآيةُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ بطريقِ الوصل عطفًا على ما قبلَها؛ لاشتراكِهما في كونِهما جملتَين خبريَّتَين، وفي الجهة الجامعة، وهي التَّذكيرُ بعظيم قدرة الله وآياته الباهرة، في حياةِ النّاس، وبتعاقُبِ آلائِه العظيمة وإحسانِه العميم، للاستدلال على توحيدِ الله تعالى، وعلى البعثِ يوم القيامة.

ركـوبُ السُّفن آيـةٌ لانـتـفـاع عمومِ الخلقِ بها

لمّا جاء ذكرُ هذه الآية معطوفةً على الآياتِ الأرضيَّة والسَّماويَّة العُظمى الّتي تعُمُّ النّاس جميعًا، دلَّ بأنَّ هذه الآيةَ كسابقتِها في انتفاع عموم الخلقِ منها، وأنَّ أثرها باقٍ إلى يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿وَءَايَةٌ﴾:

لـولا ما حملَتْ سـفـيـنـةُ نـوح لانقرضَ الخلقُ في هذه الدُّنيا

في التَّعبير بلفظِ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ أربعُ فوائدَ: الأولى: أنَّها عبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتبارًا، الثّانية: أنَّها نعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعامًا، الثّالثةُ: أنَّها إنذارٌ لهم؛ لأنَّ في الآيات إنذارًا[2]، الرّابعةُ: أنَّها علامةٌ باهرة لهم؛ لأنَّ حمل ذرّيَّتهم في الفلك المشحون الذي صنعَه نوحٌ ﷺ علامةٌ باهرة عظيمة؛ فإنَّه لولا أنَّ نوحًا حملَ النّاس المؤمنين ومن كلِّ زوجَين اثنين لَما كان المُخاطبون في هذه الدُّنيا، ففي الكلام تذكيرٌ بآيةٍ عظيمةٍ ظهرَ أثرُها لكلِّ مَن جاء بعد نوحٍ ﷺ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 521.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 19، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 34.

توجيهُ لفظِ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ بينَ الخبريَّة والابتداء:

آيـةُ حملِ نوحٍ للنّـاس تكفي دليـلًا لـلإيمان بربِّ النّاسِ

يجري في لفظ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ التَّوجيهُ النَّحويُّ الذي جرى في أُختِها، في قولِه ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: 33]، وبيانُه بإيجازٍ: أن يكون لفظُ (آيَة) خبرًا مُقدَّمًا للمصدر المُؤوّل من ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: 33][1]؛ بمعنى: أنَّ حملَ ذُرّيَّتهم آيةٌ لهم، وليس المقصودُ أنَّ الآيةَ هي في حملِ ذُرّيَّتهم في الفلك المشحون، ولمّا كان تقديمُ الخبر للاهتمام بشأنِه ورعايتِه، أشعرَ التَّقديم بعِظم هذه الآية وفخامتِها، وكونِها وحدَها تكفي لكي يُؤمنوا، ولا داعيَ لانضمام آياتٍ أُخَرَ.

ويجوزُ أن تكونَ (آيَة) مبتدأً، و﴿لَّهُمْ﴾ صفةً مُخصِّصةً للنَّكرة، والمصدرُ المُؤوَّلُ: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو الخبرَ[2]؛ لإفادةِ أنَّ آيةً دالَّةٌ على المطلوبِ مُتحقِّقةٌ في حمل ذُرّيَّتهم في الفلك المشحون، لكنَّ المُخاطَبين لا يُدركون كونَها آيةً؛ غفلةً منهم وجهلًا.

بيانُ أوجُهِ الاختلاف بينَ مُتشابه الآياتِ:

حملُ النّاس في الفُلْكِ هو الآيةُ، وليس الفُلْكُ ذاتُه

لم يقُلْ: (وَآيَةٌ لَهُمُ الفُلْكُ جَعَلْناها تحمل ذُرّيَّتهم)، على نسقِ الآيات السّابقةِ كما في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، وذلك لأنَّ الكلام في الآية الباهرةِ التي تكون موضعَ الاستدلالِ، فكان حملُ اللّه تعالى النّاسَ في الفلك المشحون هو العجَبَ والآيةَ، أمّا نفسُ الفُلْكِ فليسَ بعجَبٍ؛ لأنَّه كبيتٍ مبنيٍّ من خشَبٍ، وأمّا نفسُ الأرضِ فعجَبٌ ونفسُ اللَّيلِ عجَبٌ لا قُدرةَ عليهما لأحدٍ إلّا اللّه[3].

دلالةُ تنكيرِ ﴿وَءَايَةٌ﴾:

آيـــةٌ واحـــدةٌ تكفي لـلإيمـانِ بالله، فكيف إذا اجتَمَعَت آياتٌ؟.

تنكيرُ ﴿وَءَايَةٌ﴾ للتَّفخيم، بمعنى: أنَّها آيةٌ باهِرةٌ ليست كسائرِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 271.
(2) الأصبهاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 353.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 285.

الآيات، فكيف إذا اجتمَعَتْ عدَّةُ آياتٍ على إثبات الحشرِ والتَّوحيد؟ كما يُفيدُ التَّنكيرُ التَّعدُّدَ في الآياتِ، والمعنى: وآيةٌ لهم أُخرى تدُلُّ على وحدانيَّتِنا، وأنَّنا نبعثُهم بعد الموت.

دلالةُ اللّام في ﴿لَّهُمْ﴾ في السّياقِ:

تـوجـيـهُ الأدلَّـة للكفّار لـلاسـتـدلال على قـدرةِ الله وعظمَتِه

اللّامُ في ﴿لَّهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ للاختصاصِ، بمعنى: أنَّ هذه الآيةَ ظاهرةٌ في الاستدلال لهم على توحيدِ اللّه وعلى ظُهور نعمِه العظيمة على النّاس، وفي الاختصاص استعطافٌ للمُخاطبين وتذكيرٌ لهم بما منَّ اللّه عليهم، كما تحتملُ أن تكون للنَّفع[1]؛ أي: آيةٌ لنفعِهم في الإيمانِ باللّه والتَّصديقِ بالبعثِ.

دلالةُ الضَّمير في ﴿لَّهُمْ﴾:

الآيـاتُ الكونيَّةُ للعباد دليلٌ للكافرِ ورحمةٌ للمؤمنِ

الضَّمير في ﴿لَّهُمْ﴾ عائدٌ على كفّار قُريشٍ ومَن يجري مَجراهم في إنكارِ البعث والحشرِ، والتَّخصيصُ بالمشركين؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لإرشادِهم، ويحتملُ أن يعود الضَّمير في ﴿لَّهُمْ﴾ على العباد جميعًا كما تقدَّم في: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، ويدخلُ في عموم الضَّمير المشركون ومن يُنكرُ الحشرَ دُخولًا أوَّليًّا، بدلالة السّياق[2].

مناسبة التّعبير بالمصدر المؤوّل:

حـمـلُ الـذُّرّيـة هـو المـقـصـودُ لا وصـفُ هـيـأتِـه وكيفيَّتِه

عبَّر بصيغة المصدر المُؤوَّلِ في قوله: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّ المُرادَ تنبيهُ السّامعين بدءًا إلى عظمةِ اللّه تعالى في هذا الفعل العميم ليمنَعَهم ذلك عن الشَّكِّ، ولتذكيرِهم بمِنَّتِه الجليلةِ، فإنَّ تقديمَ المُحدَّث عنه يُفيدُ التَّنبيهَ عليه، كما أنَّه بالتَّعبير بالمصدر المُؤوَّل عُلِمَ أنَّ القصدَ إلى مُجرَّدِ معنى الحدثِ، وهو حملُ الذُّرِّيَّة دون اعتبار معنًى زائدٍ عليه، أو وصفٍ يُقيِّدُه؛ لأنَّ في (أنْ) تحصينٌ منَ الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ[3]، ولو عُبِّرَ بالمصدر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 148.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 148.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 94، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 148.

الصَّريح فقيلَ: (وآيةٌ لهم حَمْلُنا ذُرِّيَّتَهم في الفلك المشحون) لاحتملَ الكلامُ معانيَ، منها: أن يكونَ نفسُ الحمل آيةً لهم دون صفةٍ من صفاتِه، واحتملَ أيضًا أن تكونَ الآيةُ في أن يكون الحملُ على صفةٍ مخصوصةٍ، أو هيئةٍ من هيئاتِه اقترنَتْ به، فتكونُ الآيةُ مَنوطةً بذلك الوصفِ أو تلك الهيئةِ، وليس هذا هو المقصودَ، كما أنَّ في التَّعبير بالمصدر المُؤوَّلِ: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منَ التَّأكيد والمُبالغة في ظُهور المنَّةِ ما لا يخفَى كما سيأتي.

فائدةُ (أنَّ) في السّياقِ المُحكمِ:

أفادت (أنَّ) تأكيدَ مضمونِ الخبر وتقريرَه، بمعنى: تأكيدِ حملِ اللّه تعالى ذُرِّيَّتَهم في الفلك المشحونِ، بقصد تقريرِه في نفوس المُخاطَبين، فالحملُ واقعٌ، واللّه تعالى قادرٌ لا يُعجِزُه شيءٌ.

التَّأكيدُ تقريرٌ للمعنى المُستفادِ في نفوس العباد

فائدةُ التَّعبير بنونِ العظمةِ:

عبَّر بنونِ العظمة في المُسند إليه في قوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾، أي: في ﴿أَنَّا﴾ و﴿حَمَلْنَا﴾؛ للإيذانِ بعظمةِ حملِ ذُرِّيَّتِهم في الفلكِ المشحونِ، وأنَّه ممّا لا يقدرُ عليه إلّا الإلهُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّه إنَّما كان بما للّه تعالى من وصفِ العظمةِ والقُدرة اللّامُتناهيةِ.

حملُ النّاس في سفينةِ نوحٍ لا يقعُ إلّا بقُدرةِ القادر تعالى

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿حَمَلْنَا﴾:

لمّا كان الحمل بمعنى منعِ الشَّيءِ الثّقيلِ أن يصيرَ إلى جهةِ السُّفْلِ[1] عبَّر بـ﴿حَمَلْنَا﴾؛ للإشعارِ بأنَّه لولا منَّةُ اللّه تعالى وعظيمُ قدرتِه لما حُمِلتُم مع شدَّةِ ثقلِكم وكثرتِكم، ولكنتم في جهةِ السُّفلِ؛ أي: غرِقتُم.

لولا منَّةُ الله تعالى لَما حُمِلَ النّاسُ في السَّفينة مع شدَّة ثِقلِهم وكثرتِهم

وجوهُ التَّعبير بلفظِ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

الذُّرِّيَّةُ هي الأولادُ وأولادُ الأولادِ، سواء أكان المرادُ بهم الأصولَ أم صبيانَهم، كبارًا وصغارًا، ونساؤُهم اللّاتي يصحَبْنَهم في تجارتِهم،

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2355، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 455.

الاهتمامُ بشأنِ الـذُّرّيّـة فطرةٌ إنسانيّةٌ راسخةٌ، وإنجاؤُهم أبلَغُ في الامتنان

والتَّعبيرُ بالذُّرّيَّةِ فيه استعطافٌ للمُخاطَبين وتذكيرٌ بالمنَّة العظيمة؛ لأنَّ الإنسان بطبعِه وفطرتِه يُعنَى بشأن ذُرّيَّتِه ويستَذكرُ ما يكونُ منَ المنَّة عليهم ويُقدِّرُه؛ لأنَّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ، وتماسكُهم فيها أعجَبُ، وعليه يدورُ كونُه آيةً باهرةً[1].

حملُ السَّفينة لأهـلِ الإيـمـان كحملِ الجواهرِ فـي الـصُّـنـدوق المُصانِ

وفي لفظِ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إيماءٌ إلى كمالِ النِّعمةِ؛ أي: لم تكن النِّعمة مُقتصرةً عليكم، بل مُتعدّيةً إلى أعقابِكم إلى يوم القيامة، أو أنَّه خصَّ الذُّرّيَّةَ بالذِّكر لأنَّ الموجودين كانوا كفارًا لا فائدةَ في وجودِهم فقالَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: لم يكنِ الحملُ حملًا لهم، وإنَّما كان حملًا لِما في أصلابِهم منَ المُؤمنين، كما أنَّ مَن حملَ صندوقًا لا قيمةَ له وفيه جواهرُ إذا قيلَ له: لمَ تحملُ هذا الصُّندوقَ وتتعبُ في حملِه وهو لا يُشترَى بشيءٍ؟ يقولُ: لا أحملُ الصُّندوقَ وإنَّما أحملُ ما فيه[2].

ويحتملُ أن يكون المُرادُ بالذُّرّيَّةِ الجنسَ، والمعنى: حمَلنا أجناسَهم؛ لأنَّ ولدَ الحيوانِ من جنسِه ونوعِه، والذُّرّيَّة تُطلَقُ على الجنسِ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هذه الذُّرّيَّةَ من خلقِ اللّه، بما يدُلُّ عليه أصلُ الاشتقاقِ.

دلالةُ الضَّمير في: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

اللهُ تعالى يتولَّى عبادَه المُؤمنينَ، ويجعلُ نجاتَهم آيةً

الضَّميرُ في: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يحتملُ أن يكونَ عائدًا على أهلِ مكَّةَ، كما يحتملُ أن يكون عائدًا على قوم نوحٍ الذين آمنوا معه وركبوا في الفُلكِ؛ ويجوزُ أيضًا أن يكون عائدًا على العباد عمومًا، ويكونُ تقديرُ الكلامِ: وآيةٌ للعباد أنّا حمَلْنا ذُرّيّاتِ العباد؛ أي: بعضَهم[4]، أو

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 18، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 521، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 15، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269.

يكونُ التَّقديرُ: وآيةٌ لأهلِ مكَّةَ أو للعبادِ جميعًا أنّا حمَلْنا ذُرّيَّة القرون الماضيةِ في الفُلك المشحونِ، فالضَّميران مُختلفانِ.

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ: (ذُرّيّاتِهِم):

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ بالألف على الجمع مع كسر التّاء؛ لكثرة من حملَ معه في السَّفينة، وقرأ الباقون: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بغير ألفٍ على التَّوحيد مع فتح التّاء إرادةَ الجنس، والمعنى: ذُرّيّاتِ جنسِهم ونوعِهم[1].

من سَعةِ المعنى إرادةُ كثرة المحمولين في السَّفينة، أو جنسِهم

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليَّةِ:

أفاد مجيءُ الخبر جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تقويةَ الحكم وتحقيقَه في نفوسِ السّامعين بنفسِ التَّركيب، ليُفيدَ معنى: لا يحملُ ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون إلّا نحنُ، ففيه منَ المدح ما لا يخفَى.

الشَّكُّ في قصَّةِ السَّفينةِ كالإشراك بالله وإنكارِ البعثِ

ثمَّ إنَّ قولَه: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أقوى في إثبات الحكمِ من أن يُقالَ: (وآيةٌ لهم حملُنا ذُرّيَّتَهم)، ولمّا كان مثلُ هذا الفعل وهو حملُ اللّه تعالى ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون ممّا لا يُشَكُّ فيه؛ لأنَّه لا يفعلُه إلّا اللّه تعالى كان في مجيء الخبرِ جملةً فعليَّةً دون أن يُقالَ: (وآيةٌ لهم حملُنا ذُرّيَّتَهم) تنبيهٌ لمُشركي مكَّةَ ومَن يجري مَجراهم إلى أنَّ أفعالَهم القبيحةَ منَ الإشراك باللّه وإنكارِهم البعثَ وغيرِهما كانت بمثابةِ مَن يشُكُّ في أنَّ اللّه تعالى هو الذي حمل ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون، ويُنكره بحالٍ منَ الأحوال.

بلاغةُ الايجاز في حملِ الذُّرّيَّة:

من بلاغةِ القرآن التَّعبيرُ الأثيرُ باللَّفظ القليل عن المعنى الكثير

تخصيصُ الذُّرّيَّةِ بالحملِ في الفُلكِ المشحونِ مع أنَّهم محمولون بالتَّبَعِ؛ إيجازٌ في الكلامِ، واقتصادٌ في اللَّفظ تعبيرًا عن الامتنان حيث تضمَّنَ بقاءَ عقبِهم، وعن التَّعجُّبِ؛ إذ تضمَّنَ حملَ ما لا يكاد

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 273، والعليمي، فتح الرحمن: 5/ 485.

يُحصَى كثرةً في سفينةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه كان الظاهرُ أن يُقالَ: حمَلْناهم ومَن معهم ليبقَى نسلُهم، فذِكرُ الذُّرِّيَّة يدُلُّ على بقاء النَّسلِ، وهو يستلزمُ سلامةَ أصولِهم، فدلَّ بلفظٍ قليلٍ على معنًى كثيرٍ[1].

بديعُ الإدماجِ في السّياقِ:

تنويعُ المِنَنِ للمُبالغةِ في الاعتبار والاتِّعاظِ

لمّا كانت هذه الآيةُ حاصِلةً لفائدةِ حمل أزواجٍ من أنواع الحيوان جعلت لآيةِ نفس الحملِ إدماجًا للمنَّةِ في ضمنِ العبرة؛ ليُفيدَ قولُه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تنويعَ المنَّةِ؛ أي: في صُنع الفلك، وفي حملِ ذُرّيّاتِهم فيه، فكأنَّه قيلَ: وآيةٌ لهم صُنعُ الفُلكِ لنحمِلَ ذُرّيّاتِهم فيهِ فحملناهُم[2].

بلاغةُ التَّعبير عن حملِ الذُّرِّيَّة:

لولا نَجاةُ الأصولِ ما جاءَ ما كان في أصلابِهم

لمّا عبَّر بالذُّرِّيَّة على وجه العموم في قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ اقتَضى أنَّ أصولَ النّاس وجميعَ البشر محمولون في الفُلك على طريق الكنايةِ إيجازًا في الكلام، وإظهارًا لكمال المنَّة على المُخاطَبين والنَّصِّ بها عليهم، فكأنَّه قال: إنّا حملنا أُصولَهم وحملناهم وحملنا ذُرّيّاتِهم؛ إذ لولا نجاةُ الأصولِ، ما جاءتِ الذُّرّيّاتُ التي كانت في أصلابِ الأصولِ، وكانتِ الحِكمةُ في حملِ الأُصولِ بقاءَ الذُّرّيّات؛ فكانتِ النِّعمةُ شاملةً للكلِّ، ويحتملُ أن يكون الكلامُ على طريق المجازِ المُرسلِ، والمعنى: حمَلْنا آباءَهم، تسميةً للسَّبب باسم المُسبَّبِ؛ لأنَّه ذرأ الأبناءِ منهم[3].

والنُّكتةُ فيه إظهارُ المنَّة على المُخاطبين منَ القوم الكافرين؛ لأنَّهم هم المقصودون - على جهةِ الأولويَّةِ - بالخطابِ.

ومن أسبابِ العدول إلى الكناية، أو المجازِ المُرسل هو أنَّه هناك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 27.
(3) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 691.

مَن لم يُحمَل في الفلك من أصول البشر من قبلِ نوحٍ عليه السلام، فلو قيلَ: (وآية لهم أنّا حملنا آباءَهم) لدخَلَ فيهم آباؤُهم من قبل نوحٍ عليه السلام الذين كان من نسلِهم مَن ركبَ الفلك مع نوحٍ[1].

من دلالاتِ الكناية في السّياقِ:

الإيمانُ بالرَّسولِ الخاتمِ هو المُنجي منَ الهلاك الدّاهمِ

لمّا كان المُرادُ بقوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حملَ أصولِ النّاس الذين هم آباؤُهم على طريق الكنايةِ كان في الكلامِ إيماءٌ إلى أنَّكم أيُّها الكافرون من ذُرّيَّة مَن نَجا منهم من آبائِكم الذين كنتُم في أصلابِهم، وهم الذين آمنوا برسولِهم نوحٍ عليه السلام وصدَّقوه، لا مَن كذَّب به، فكيف لم تتَّبعوهم، مع أنَّكم تتحجَّجون بقولِكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزّخرف: 22][2]، وإن كان المُرادُ التَّوجيهَ الثّانيَ كان المعنى: إنَّ في آبائِكم مَن قد صدَّقَ الرُّسل، وآمَنَ بهم، ومنهم مَن كذَّبَهم، فكيف اتَّبعتُم الذين كذَّبوهم دونَ الّذين صدَّقوهم، ففيه تبكيتٌ وتوبيخٌ لهم على كُفرِهم، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ إيمانَهم بالرَّسولِ ﷺ، هو الّذي يُنجّيهم منَ الهلاكِ.

دلالاتُ حمل الذُّرّيَّة:

تعظيمُ منَّةِ السَّببِ في الإنجاءِ؛ لكونِه أدلَّ على المقصودِ

لمّا كان المرادُ من حمل الذّرّيَّة في الفلك في قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الإنجاءَ منَ الغرقِ - لأنَّ الكلامَ سيقَ في بيان المنَّة العظيمةِ - كان إطلاقُ الحملِ على الإنجاءِ على وجهِ المجازِ المُرسلِ لعلاقةِ السَّببيَّة والمُسبَّبيَّة؛ لأنَّ الحملَ في السَّفينة سببٌ في الإنجاء منَ الغرقِ في وقتِ الطّوفان، والمعنى: وآيةٌ لهم أنّا أنجَينا ذُرّيّاتهم منَ الغَرقِ بحملِهم في الفُلكِ حين الطّوفانِ[3]، ليُفيدَ التَّعبيرُ بالمجاز المُرسلِ تعظيمَ منَّةِ السَّبب في الإنجاءِ، فكونُه آيةً أدلُّ على المقصود لظُهورِه ووضوحِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 522.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 27.

الإشـارةُ إلى المـحـمـولِ والمحتملِ تنويعٌ في المنَّةِ ومُبالغةٌ

وعلى القول: إنَّ المُرادَ بالفُلك المشحون سفينةُ نوحٍ ﷺ يكونُ الفعل ﴿حَمَلْنَا﴾ مُسندًا إلى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على طريقِ المجاز العقليِّ؛ فإنَّ ذُرِّيَّة المُخاطَبين لم تُحمَلْ في الفُلك، فيكونُ المُرادُ بإسناد الحمل إلى الذُّرِّيَّة حملَ آبائِهم الأقدَمين وفي أصلابِهم هؤلاءِ وذُرِّيَّتُهم[1]، تنويعًا في المنَّةِ ومُبالغةً فيها.

من دلالاتِ كونِ حملِ الذُّرِّيَّةِ آيةً لهم:

آيـاتُ الـلـه عبر الـزَّمـان ظـاهـرةٌ ومُستمرَّةٌ في كلِّ آنٍ

لمّا كان حملُ الذُّرِّيَّة آيةً لهم، وكانت آيةُ الأرض الميتةِ وآيةُ سلخِ النَّهار منَ اللَّيل وآيةُ الشَّمس تجري لمُستقرٍّ لها كلُّها تُفيدُ استمرارَ الآية وظُهورَها للنّاس؛ فُهِمَ من دلالةِ قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنَّ هذه الآيةَ مُستمرَّةٌ لكلِّ ناظرٍ؛ إذ يشهدونَ أسفارَهم وأسفارَ أمثالِهم في البحرِ، ولا سيَّما سُكّانُ الشُّطوطِ والسَّواحِلِ، فيُفهَمُ منه: أنّا حملنا ونحملُ وسنحملُ أسلافَهم وأنفُسَهم وذُرّيّاتِهم[2].

توجيهُ التَّشابُهِ اللَّفظيِّ مع هذه الآية:

تـنـوُّعُ المقاصدِ يـقـتـضي تـنـوُّعَ الـعـبـارة وكـثـرةَ الفوائدِ

جاء في سورةِ يس قولُه تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وفي موضعٍ آخرَ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: 11]؛ أي: لمّا طغا الماءُ وتجاوَزَ حدَّه حملناكم في السَّفينةِ؛ أي: في زمنِ نوحٍ ﷺ، فالآيتان تتحدَّثانِ عن الإنجاءِ بسفينةِ نوحٍ ﷺ، ففي آيةِ سورة يس مَنَّ عليهم بحمل ذُرِّيَّتِهم، وفي آية سورةِ الحاقَّة منَّ عليهم بحملِ أنفُسِهم، وتوجيهُه أن يُقالَ: المقصودُ من آيةِ سورةِ يس بيانُ الآيةِ الباهرةِ على توحيدِ الله تعالى، وأمّا إظهارُ المنَّة فهو تَبَعٌ للآيةِ الباهرةِ، من أجلِ الاستعطافِ، فذكرَ فيها ما ينفعُ الذُّرِّيَّةَ الذي يستلزمُ نفعَ الأصولِ؛ لأنَّ مَنْ ينفَعُ المُتعلِّقَ بالغيرِ يكونُ قد نفعَ ذلك الغيرَ، وأمّا المقصودُ من آيةِ سورةِ الحاقَّة فهو بيانُ دفعِ ضررِ العذابِ عن النّاس.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 27.

(2) ابن عاشور/ التحرير والتنوير: 23/ 28.

ويدلُّ عليه سياقُ الآياتِ في بيان العذابِ والضُّرِّ الذي وقع بالكافرين في قولِه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٖ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦﴾ [الحاقة: 5 - 6]، وقولِه: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة: 9 - 10]، فمَنَّ عليهم فيها بحملِ أنفُسِهم؛ لأنَّه لو مَنَّ عليهم بدفع الضَّررِ عن الذُّرِّيَّة لا يُفيدُ دفعَ الضّرِّ عنهم؛ فإنَّ مَن يدفَعُ الضَّررَ عن المُتعلِّقِ بالغيرِ لا يكونُ قد دفعَ الضَّررَ عن ذلك الغيرِ، بل يكون قد نفعَه، مثالُه: مَن أحسَنَ إلى ولدِ إنسانٍ وفرَّحَه فرحَ بفرحِه أبوه، وإذا دفعَ واحدٌ الألمَ عن ولدِ إنسانٍ يكونُ قد فرَّحَ أباه، ولا يكونُ في الحقيقةِ قد أزالَ الألمَ عن أبيه، فعند طُغيانِ الماءِ كان الضَّررُ يلحقُهم فقالَ: دفعتُ عنكم الضَّررَ، ولو قال: دفعتُ عن أولادِكم الضَّررَ لَما حصلَ بيانُ دفعِ الضَّررِ عنهم.

وفي آية سورة يس أرادَ بيانَ المنافعِ فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّ النَّفعَ حاصلٌ بنفعِ الذُّرِّيَّةِ، ويدُلُّك على هذا أنَّه في آيةِ سورة يس قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ فإنَّ امتلاءَ الفُلكِ منَ الأموالِ يحصُلُ بذكرِه بيانُ المنفَعةِ، فاختار ما يدلُّ على كمالِ المنفعةِ وهو الشَّحنُ، وأمّا دفعُ المضَرَّة فلا يُفيدُه لفظُ الشَّحن؛ لأنَّ الفُلكَ كلَّما كانَ أثقلَ كانَ الخلاصُ به أبطأَ، وأمّا في آيةِ سورةِ الحاقَّة فاختارَ الجريَ الذي يُفيدُ سرعةَ السَّير، الذي تتمُّ به السَّلامةُ والخَلاصُ منَ الضَّررِ[1].

وجاء في سورةِ الإسراءِ قولُه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]، وفي سورة يس: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، ففي آيةِ سورةِ الإسراءِ لم يقُل: (وحمَلْنا ذرِّيَّتهم في البرِّ والبحرِ)، مع أنَّ المقصودَ في الموضِعَين بيانُ النِّعمةِ لا دفعُ النِّقمةِ والضَّرر، والعلَّةُ في ذلك هو أنَّه لمّا قال: ﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] عَمَّ الخلقَ؛ إذ ما من أحدٍ إلا وحُمِلَ في البرِّ أو البحرِ، وأمّا الحملُ في البحرِ فلم يعُمَّ، فذُكِرَ بأنَّه إن كنّا ما حملناكُم بأنفُسِكم فقد حملنا ذُرِّيَّتكم ممَّن يُهِمُّكُم أمرُه منَ الأولادِ والأقاربِ والإخوانِ والأصدقاءِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 284.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 284.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحرفِ ﴿فِي﴾:

لمّا كان الحملُ يتعدَّى بـ(على)؛ إذ الحملُ ما كان على ظهرٍ أو رأسٍ[1]، كانت تعديةُ الفعل بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة في قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ للإشعار بقوَّة تمكُّنِهم في الثَّباتِ في السَّفينةِ بوصفِها سوَّرَتْهم كالوعاءِ لهم في الاستيعابِ والإحاطةِ؛ فكانوا راسخينَ فيها مع قوّةِ الطّوفان الذي عمَّ الأرضَ وعظمتِه، ليُشير إلى عظمةِ الإنجاءِ، وكونِ الثَّباتِ في السَّفينة وقتَ الطّوفانِ من تمامِ الآيةِ.

التَّرسُّخُ في السَّفينة وقتَ الطّوفانِ من تمامِ الآيةِ

دلالةُ (أل) في السّياقِ المُحكَمِ:

تحتملُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ أن تكونَ للعهدِ، ويُقصَدُ به الفُلكُ المُعيَّن الذي كان لنوحٍ عليه السلام، وهو المشهورُ عند العرب، فأغنَتْ شُهرتُه عن ذكرِه أوَّلًا، وتحتملُ أيضًا أن تكونَ للجنس، فيُقصَدُ بالفلك جنسُ الفُلك، ليشملَ جميع السُّفن التي يركبونَها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزُّخرُف: 12]، وقالَ تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطِر: 12][2].

الفُلكُ هو المعلومُ المشهورُ عند العربِ، أو يشملُ جميعَ السُّفنِ

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾:

لمّا كان معنى ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ هو المملوءَ كان مجيءُ اللَّفظِ صفةً لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ أظهرَ في معنى الامتنانِ؛ لأنَّ السَّلامةَ في الفلك المشحونِ من أجلِّ النِّعمِ، وللتَّنبيه على قُدرةِ الله تعالى بحملِ الماءِ السّائلِ الرَّقيقِ الفلكَ المملوءَ الثَّقيلَ، وفي مجيءِ الصِّفة أيضًا مُراعاةً للفاصلةِ، فأفادت الصِّفةُ أمرين: أحدَهما معنويٌّ دلاليٌّ، والثّانيَ لفظيٌّ في الفاصلةِ المُؤثِّرة في نفوسِ السّامعين[3].

التَّنبيهُ إلى عظيمِ قُدرةِ الله تعالى بحملِ الفُلكَ على الماءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات: (حمل).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 149.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»